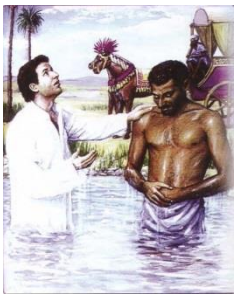

رداء المجد

للقديس مار أفرآم السرياني[١]

(تتمة)

+ «لأَنَّ كُلَّكُمُ الَّذِينَ اعْتَمَدْتُمْ بِالْمَسِيحِ قَدْ لَبِسْتُمُ الْمَسِيحَ» (غل ٣: ٢٧)

قرأنا للقديس مار أفرآم في العدد السابق أن ق. مريم "لبست رداء المجد" عند حضور المسيح في بطنها، باعتبار ذلك هو ميلادها الثاني التعميدي[٢]. ولكن كيف يمكننا أن نفهم هذه المعمودية المسبقة حتى قبل أن يفتتح الرب المعمودية في الأردن؟ يمكننا رؤية حل مثل هذه المعضلة في التأكيد السرياني المبكر على معمودية المسيح في الأردن كينبوع للمعمودية المسيحية مع عدم التركيز على دور موت الرب وقيامته. وإن كان كل هذا غير مألوف لدينا، إلَّا أن فكر مار أفرآم يتَّسع ليستخدم هنا بوضوح فكرة تجاوز الزمن وإلغائه: فالتجسُّد يكون له تأثيرات فعَّالة عند أي مرحلة من مراحل التجسُّد الرئيسية، بمعنى: رحم مريم ثم "رحم" الأردن ثم "رحم" الهاوية التي أصعد منها الراقدين على الرجاء. وهكذا فإن تأثير موت المسيح وقيامته يمكن أن **يسبق** بالفعل في الزمن، بينما لا يزال الرب في الرحم أو في معموديته في الأردن.

وفي مقاطع أخرى، قد ينتقل مار أفرآم من معمودية المسيح إلى المعمودية المسيحية: وهكذا فهو في شرحه للدياتسارون (٤: ٣) يرى أن حلول الروح القدس في معمودية المسيح يشير إلى أن الروح يُمنح بالمعمودية. وفي "الحديث عن ربنا" (الفقرة ٥٥)

---

(١) أُعدَّ هذا المقال بالاستعانة بكتاب:

Sebastian Brock.*The Luminous Eye, the Spiritual World Vision of St. Ephrem*, 1985, pp. 65-76.

وقد تم نشر جزئه الأول في العدد الماضي من المجلة، أكتوبر ٢٠٢٢، ص١٨-٢٤.

(٢) انظر العدد السابق، ص ٢٢.

يقول القديس عن "رداء الروح":

[بيَّض يوحنا المعمدان وصمات الخطايا بماءٍ عاديٍّ، وذلك لكي تُحسَب الأجساد لائقة للبس رداء الروح الذي مُنَح بواسطة الرب. ولأن الروح كان مع الابن، فقد جاء الابن إلى يوحنا لكي يتعمَّد منه، وذلك لكي يمزج الماء المرئي بالروح الذي لا يمكن أن يُرى، وذلك حتى أن الذين تدرِك أجسادَهم رطوبةُ الماء، يدركون في أذهانهم عطية الروح].

ويضع القديس نفس الفكرة في صيغة أكثر بلاغةً هكذا:

[جسدنا صار ملبسك، وروحك صار هو رداءَنا] (على الميلاد ٢٢: ٣٩).

وقد طبَّق بعض الكُتَّاب اللاحقين لمار أفرآم، ولا سيما القديس يعقوب السروجي، التصوُّر المجازي لرداء المجد بوضوح على معمودية المسيح، فهو يقول:

[جاء المسيح إلى المعمودية ونزل ووضع في ماء المعمودية **رداء المجد** لكي يبقى هناك لأجل آدم الذي كان قد فقده!][٣].

إن معمودية المسيح وتقديس مياه الأردن يعطيانا الفرصة لنستعيد في المعمودية المسيحية **رداء المجد** المفقود. ونجد في رسائل ق. بولس تصوُّرًا بديعًا للملابس الروحانية، فهو يقول: «لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غل٣: ٢٧). وقد انعكس هذا المعنى بطريقةٍ مباشرةٍ في أحد أناشيد مار أفرآم إذ يقول:

[الجسد والنفس معًا يُمجِّدانك، لأنهما قد تعمَّدا فيك، وقد لبساك] (ضد الهرطقات ١٧: ٥).

كما قال في أناشيد الإبيفانيا:

[يا أبناء جرن المعمودية، أيها الأطفال الذين بلا دنس،
قد لبستم النار والروح، فاحفظوا الرداء المجيد الذي لبستموه في الماء.
الذي يلبس رداء المجد من الماء والروح
يحرق بلهيبه أشواك خطاياه المتعاظمة] (عن الإبيفانيا ٤: ١٩-٢٠).

---

(3) Ed. Bedjan, III, p. 593.

وفي مجموعةٍ أخرى من هذه الأناشيد تتصل استعادة آدم **لرداء المجد** بصفةٍ خاصةٍ بالمعمودية، فنجد آدم مرةً أخرى كفرد وكشامل للجنس البشري، حيث يقول:

[في المعمودية وجد آدم ذلك المجد الذي كان له بين أشجار الفردوس،
فنزل وأخذه من الماء ولبسه وصعد،
وبقيَ فيه بكرامةٍ (أي في المجد)] (على الإبيفانيا ١٢: ١).

وفي الأناشيد الأولى للإبيفانيا لهذا القديس توجد سمتان مُتميِّزتان لأناشيده الأصيلة هما: الارتباط الوثيق بين النار والروح، وفكرة "صيانة" **رداء المجد**. وفي الأناجيل يوجد وعد بأن الرب يسوع سيعمِّد بالروح والنار، ومنذ القرن الثاني كان هناك تقليد ازداد انتشارًا بأنه عندما اعتمد الرب ظهرت نار مع نور، أو نور فقط، فوق نهر الأردن(٤). وفي التقليد السرياني للنار دورٌ هامٌّ جدًّا في علاقتها بالمعمودية. والقديس مار أفرآم يربط هذا الموضوع في كتاباته بتصوره للثالوث كشمس ونور وحرارة، هذا التشبيه الذي طوَّره في نشيدين عن الإيمان (٤٠ و٧٣). وفي نشيد عن الإفخارستيا، يصف القديس حضور المسيح في رحم العذراء وفي الأردن وفي الإفخارستيا أيضًا مثل نار:

[انظر: النار والروح في البطن التي حملتك،
انظر: النار والروح في النهر الذي تعمَّدتَ فيه.
النار والروح في معموديتنا،
وفي الخبز والكأس، النار والروح القدس] (على الإيمان ١٠: ١٧).

رداء العرس:

عندما يوصَى المعمَّدون الجُدد بأن "يحفظوا" أو "يصونوا" **رداء المجد** الذي اكتسبوه حديثًا، فإنه يُشار إلى وجود خلفية لذلك في مَثَل العرس في مت ٢٢: ١-١٤، الذي ذكر الضيف الذي حضر بدون لِباس العرس وطُرح خارجًا. وقد تعلَّمنا من شُرَّاح الكتاب بصراحةٍ أن لِباس العرس هذا ليس سوى **"رداء المجد"** الذي يُكتسَب من المعمودية والذي ينبغي أن يُحفَظ غير ملوَّث لأجل وليمة العُرس الأبدي. ولكن هذا ليس

(٤) بخصوص هذا التقليد انظر كتاب: C.D. Edsman, *Le Baptême de feu*, p. 182-189.,

معناه أن ضيف العُرس لم يكن له لِباس عرس على الإطلاق، بل بالحري كان قد أُعطِيَ واحدًا في المعمودية ولكنه أضاعه أو أفسده.

وكان هذا التفسير لهذا المَثَل شائعًا بالفعل في الكنيسة السريانية أيام مار أفرآم، وهو نفسه صوَّر ذلك بقوله:

[ارتدى البِكْر جسدًا كبرقع ليخفي مجده.
العريس غير المائت تألَّق في هذا الرداء،
فليجعل ضيوفُ العُرس أرديتَهم تشابه رداءَه.
اجعلوا أجسادكم، التي هي أرديتكم، تتألَّق،
لأنها تكبِّل بالقيود ذاك الإنسان الذي تلوَّث جسده.
يا رب، بيِّض بُقعي في وليمتك بضياء إشراقك] (نشيد نصيبين ٤٣: ٢١).

هنا يُفسِّر مار أفرآم رداءَ العُرس في المَثَل الإنجيلي، ليس برداء المجد المكتسب من المعمودية، كما كنَّا نتوقَّع، بل بالأجساد الفعلية لضيوف العُرس التي لا بدَّ أن تكون متَّصلة بإشعاع ومجد جسد المسيح، أي بالرداء الذي يرتديه العريس السماوي ذاته.

كما أن مَثَل العُرس في مت ٢٢، يمكنه أن يصوِّر لنا العلاقة بين رداء مجد المعمودية ورداء المجد الأُخروي (أي الأبدي). فإن توزيع ملابس العُرس، أردية مجد المعمودية، تتم في التاريخ الزمني في المعمودية، في حين أن وليمة العُرس الفعلية تخص الزمن الأُخروي المقدَّس حينما يتحقَّق الأبرار - أي الذين "حفظوا" ملابس عُرسهم غير ملوثة - يتحقَّقون بالكامل من وجود أردية المجد التي تخصهم.

[لن يكون أحد بين القديسين عريانًا،
لأنهم قد لبسوا المجد.
ولن يكون هناك أي اكتساء بأوراق التين،
أو الوقوف في خزي،
لأنهم وجدوا في ربنا الرداء الذي كان يخص آدم وحواء] (على الفردوس ٦: ٩).

وهكذا فإن الكنيسة نفسها تمثِّل كلًّا من الفردوس على الأرض والفردوس الأُخروي،

حيث إنه في فكر هذا القديس نجد أن كلمتي "الفردوس" و"الملكوت" مترادفتين إلى حدٍّ ما. كذلك أيضًا، فإن المسيح نفسه يمثِّل شجرة الحياة التي يشترك المعمَّدون في ثمارها فعلًا في هذه الحياة في الإفخارستيا. وهكذا فإن الفردوس الأُخروي، ومعه **رداء المجد** وشجرة الحياة، يوجد كامنًا بالفعل في الزمن التاريخي. ولكن سيُتحقَّق منه فقط في الحياة الأخرى خارج الزمن. والحياة السرائرية عند مار أفرآم، عندما تُعاش بالكامل تكون هي الفردوس الأُخروي المسبق هنا على الأرض. أما مقدار تحقُّق المسيحيين من هذا الفردوس الأُخروي واختباره منذ الآن فيعتمد على قدرة كل فرد على الانبهار أمام حقائق الروح، وعلى امتلاكه لعين الإيمان الداخلية المستنيرة.

ويستخدم مار أفرآم تعبير القديس بولس المجازي: "العربون" لكي يصوِّر العلاقة بين الفردوس الذي يمكن اختباره الآن جزئيًّا وذاك الذي يُختَبَر كُلِّيًّا في الحياة الأخرى، فيقول:

> [نريد أن نقول أيضًا: إن كان آدم قد مات بسبب الخطية، فإن ذاك الذي أزال الخطية كان عليه أن ينزع الموت أيضًا. ولكن تمامًا كما قيل لآدم: «يوم تأكل من الشجرة المحرَّمة تموت»، ولكنه في الواقع المنظور لم يمت، ولكنه بالحري أخذ **عربونًا لموته** بتعرِّيه من المجد وطرده من الفردوس، حيث ظل بعد ذلك يتفكَّر كل يوم في الموت؛ فهذا هو نفس الأمر بالنسبة للحياة في المسيح: لقد أكلنا جسده عوضًا عن ثمرة الشجرة، وصار مذبحه لنا عوضًا عن جنة عدن، واللعنة قد أُزيلت بغسلها بدمه الزكي، وبرجائنا في القيامة ننتظر الحياة العتيدة، ونحن حقًّا نسير بالفعل في هذه الحياة الجديدة التي أخذنا فعلًا **عربونها** الآن] (شرح الدياتسارون ٢١: ٢٥).